قصة
مررتُ من شارعِ الفِداء
جمال بن عبد الله ألحيان

رقم الإيداع الدولي

2_677890_23

تحقيق ومراجعة : الشرطي الخلّ والصديق

هذه القصة من نسج الخيال، وأي شبه بين أحداثها وأشخاصها وأماكنها مع أشخاص حقيقيين وأحداث وأماكن حقيقية هو مجرد صدفة ومجرد عن أي قصد.

في بداية كل حكاية توجد حكاية، كان عليّ أن أنتظر متى أصل، لقد وصلت إلى البداية لتوّي، ستكتب الأيام ما لم تكتبه الأقلام، بل سأبدأ كما قلت:

كان الجو باردا، مَشَينا تحت سماء زرقاء صافية أنا وذكرياتي، فبعد تناول الفطور أخرج من المحلبة ويدي على سيجارة الصباح، أخرج في غاية السرور، وكلما تقدمت من مكان عملي بقيسارية الحفاري بدرب السلطان، أخترق أزبال الكرتون على مشارفها ضاربا بكل قوة كل ما بدا لي يستحق الضرب والركل. رجلي اليسرى توجعني، أتكئ على اليمنى بشكل كبير.

شمس الصباح رغم برودة الطقس قاسية على عيني اللتان لا زالتا لم تفتحا بعد، وما زالت قسوتها ترهقني ولا زلت أجهل السبب، هناك ألم خفيف يحرقني في مقلتيّ، قد يكون أي شيء ولا زلت أشك في دخان السجائر داخل الغرفة، أو نومي بقرب حذائي كريه الرائحة، لا أقدر على الجزم، سأكتفي ...

بظلال القيسارية المشكّلة من أشرعة الباعة المتجولين الموزعة في كل مكان، ومظلات الشواطئ المتناثرة على الأرصفة ووسط الطريق، يخف ضوء الشمس فجأة ويخف الألم، كأن يد عطف وارت الشمس عني، فحتى الآن لا زلت مغرما بابنة بائع الفساتين أمام طاولتي التي جمعت فيها بعض الساعات اليدوية الرخيصة، نظرت حولي فرأيت أني قد تأخرت.

سبقتني طامو صاحبة المسمن، والطاهر حارس قيسارية بائعي الذهب، أحسست أنّ قدميّ خفيفتين كأنهما جناحان، وكان الهواء قادر على حملهما بعيدا عني، كان الهواء ناعما يصفر قرب أذنيّ، وبعد دقائق معدودة بدأ يقسو عليّ، بدا لهاثي يصل إلى مسامعي مع آخر نفثة من سيجارة المالبورو، وأحسست برئتي تمزقني من الداخل، فأغمضت عيني مستلقيا على درج عمارة وراء طاولتي وتركت جسدي الهزيل يتسرب برودة الدرج وتركته يهوي إلى حيث يريد، وكنت أقول كما عهدت دائما :

ــ اليوم سأكلم نجوى وسأصارحها بكلّ شيء ...

وجدتني الحاجة صاحبة العمارة نائما من شدة الإعياء، كانت تحمل مصباحا يدويا وهي تتخبط بين طرقات العمارة الضيقة المظلمة، تنتعل بلغة أمازيغية تافرواتية، قرعت سواتر نومي لتقول :

ــ استيقظ يا ابني أحمد ... استيقظ ...احرس بضاعتك ...

استيقظت مباشرة ومسحت وجهي، ودلكت عينيّ بقوة، لأضع يدي في جيبي متفحصا وجود هاتفي وبعض القطع النقدية، نظرت في ساعة الهاتف لأرى أني قد نمت لما يقارب النصف ساعة وسط درج العمارة البارد، كنت أرتجف من البرد الذي قام بإثلاج مؤخرتي، كان جسدي يهتز من شدة البرد، فتحت عيني في الشارع وكان الضوء حادا كسيوف الساموراي، ورأيت نفس الوجوه بنفس الأنماط والعادات، بنفس اللهجة وفي نفس الأماكن، أغمضت عيني مرة أخرى وتخيلتها قادمة من شارع الفداء وهي تفكر فيّ وتحاول أن تبتذل كلمات مثالية لحديث اليوم، وحلمت أني أراقبها وأحميها من كل سوء، لقد كان بمقدوري أن

أصارحها بكل ما يخالجني مشاعر بائسة، وخاصة حين أنصت لأغاني الشاب حسني، ولكن من الصعب أن أجتمع معها أمام أنظار الباعة في القيسارية، وخاصة مع وجود أب مثل أبيها الذي يلعن الشتاء والربيع والصيف والزمان، قزم تظهر من ملامح وجهه تلك الطفولة القاسية وذلك الفقر المدقع بأحياء الدار البيضاء، وجه مقطب كالح كوجه يعاني من مرض عدم الابتسام .

بعض مضي ثلاث ساعات تقريبا واقتراب موعد صلاة الظهر، طلب مني التازي بائع الزرابي مراقبة سلعته ريثما يتوضأ، جلست على كرسيه وكان الجو يسير نحو الدفء، وكان بائع الفساتين يقلب عينيه في كل مكان، بل في كل زاوية وفي كل شق في حائط، ليستحيل كل شيء بخصوص ابنته، لا يتجاوز ثمن فساتينه الأربعين درهما فقط .كنت أتحاشى النظر في عينيه، بعد أن انفجر عليّ في أول يوم لي في السوق، فكرت أن بعض الأشياء لا تتغير أبدا.

تعلمت من السوق على طول هذه السنوات الخمس كنوزا سابقت من أحبها الليل والنهار، كانت القيسارية بالنسبة لي مدرسة بدل المدرسة التي حرمتها لحياتي الفقيرة، والتي صادرتها دولتي للهاوية، وخلال هذه الفترة وقعت في حب نجوى، حب عفوي بريء ...

وجدتها تبيع الفساتين لوحدها، لوحت لها من بعيد وزدت من سرعة خطواتي، رأيت في تلك اللحظة نجوى زوجة لي، كانت هناك فتيات أخريات، ولكني كنت أراقبها هي فقط، هزت رأسها لتشير لي تجاه إحدى المحلات... إنه الأب القزم يشرب الشاي مع بائع الحقائب النسائية، فاكتفت واكتفيت برد التحية، كان الكل يعرف بتلك العلاقة الرومانسية البريئة .

مكتوب لي أن أعيش بريئا وأن أقاسي في الغربة ماديا وعاطفيا، لقد أوصلتني دروب القدر إلى ما أنا عليه. كان بائع الفساتين يريد لابنته الزواج من أحد صائغي الذهب بالقيسارية، لذلك حاول بكل ما أوتي من قوة أن يغتصب حقي في الإعجاب بابنته، لم أكن أملك شيأً سوى ما ألبسه وهاتف بشاشة مكسرة، وقلب كبير مستعد أن يفعل المستحيل من أجل نجوى، من أجل الحب، من أجل القيم ، من أجل ابنة بائع الفساتين ...

خلال هذه الفترة تبادلنا نفس المشاعر الصادقة، وكان بائع الحقائب النسائية يرفع مكبر الصوت بالموسيقى ويتعمد موسيقى الغرام ليصيح بكل ما أوتي من قوة ... أيها الساعاتي... أنا معك ...أنا أساندك ... فينفجر بالضحك وأنفجر معه ضاحكا، لترتسم معالم الخجل على وجه نجوى البشوش ...

أصبحت يتيم المشاعر كلما اقترب شهر غشت، كان موعد صائغ الذهب ... تمنيت لو كانت الأيام تمر كالشهور، كانت سريعة كالبرق، وكلما اقترب الموعد زادت دقات قلبي ونقصت حيويتي، فقدت شهية الأكل، كما أصبحت شرها في التدخين، سريع الغضب... لم أتحمل فكرة زواج نجوى ... ولكني رغم ذلك كنت مأمولا بشكل كبير ...

«ليس صعبا ... لكنّه لن يحصل، هي عبارة الصباح والمساء وقبل النوم » وبينما كان الأب يقرأ جريدة الصباح، لمحني أخاطب ابنته، مدّ يده لتحت طاولته الخشبية، أخرج زجاجة فارغة، ولكن هذه المرة لم يكن يهدد بل أرسلها مباشرة نحو رأسي لينفجر الدم بغزارة ولأغيب عن الوعي بشكل سريع، لأستفيق في المستشفى مصابا بكدمة قوية في رأسي، وعين متورمة إثر سقوطي على طاولتي ...

تذكرت كل شيء، فدام مقامي بالعناية الطبية خمسة أيام، لم أكن بمقام المكان، وخاصة في أوقات الزيارة، لم يأت أحد لزيارتي، لا أحد خلا طامو بائعة المسمن، كان الأمر صدمة في بادئ الأمر، اكتفت وجباتي كذلك بما جاد به أحد المحسنين من فواكه ومجبنات، ولا رسالة نصية واحدة من نجوى، كانت الخمس العجاف عذابا على مشاعري وحبي، وهكذا خرجت محطما لتجدني واقفا على مشارف الحي ... لم يعد لي مكان الآن... لا أحد يرغب بي، فلست سوى واحد من الآلاف العابرة ...

تركت منذ ذلك الحين موسيقى الراي، بل تركت التدخين كذلك، لم أعد أقذف بعلب الكرتون، انطلقت بعيدا إلى اليوم، فبعد خمسة عشر سنة لا زلت أبتعد ...وها انا الآن أجر قلمي جرا ... مبتعدا ..

إلى هنا ... انتهى بفضل الله وكرمه.